ذكريات ... مع الآداب

بقلم
عايدة الشريف

اللقاء الاول

كان الفن والفكر ، قبل تعرفي على مجلة «الآداب» ، عالم غائم الملامح غير محدد الأبعاد . فقد كنت في هذه الآونة – في زمن البحث عن الذات – شديدة التعلق بمشاهير الكتاب الرومانسيين الذين يجيدون صنع الاحلام التي تشبع الاحتياجات الروحية والنفسية لفتاة مصرية في سني حينئذ . وكان الخروج من هذه الاحلام والكشف عن مدى هزالها في مواجهة واقع حافل بالحياة .. يتطلب الكثير من الوعي والجهد الشاق في طريق التغيير الى الافضل والاجمل .

والحق انه قبل تعرّفي على مجلة « الآداب » بفترة وجيزة ، كانت نسائم الافاقة من عالم الخيال قد هبت عليّ من خلال مقالات الدكتور محمد مندور .. في جرائدنا ومجلاتنا .. ثم من خلال اكتشافي لروائي مصر نجيب محفوظ .. وعندما وجدت أعمالا لهذين الكاتبين منشورة في مجلة « الآداب » ، وجدتني مشدودة برباط لا ينفصم بهذه المجلة .

وقد جاء هذا الرباط بالتحديد عندما حصلت على الثانوية العامة .. وكنت قد تعرفت من خلال مقالات الدكتور مندور على المعهد العالي للفنون المسرحية ، فآثرت الالتحاق بذلك المعهد ، لكي أكون تلميذة لهذا الكاتب الفذ .

ولما كان المعهد وقتئذ غير مضمون الوظيفة من وجهة نظر الاسرة فقد جمعت بينه وبين الدراسة بكلية الحقوق التي عرّفتني بدورها على مجموعة من الادباء والفنانين مثل بهاء طاهر .. ورجاء ووحيد النقاش . وبعد أن كتب لي وحيد عدة ملاحظات على القصص القصيرة والطويلة التي كنت أكتبها .. كتب لي بهاء طاهر قائمة بالكتب والمجلات التي ينبغي عليّ أن أقرأها وعلى رأس هذه القائمة مجلة « الآداب » .. وأمدني رجاء النقاش ، وكان مراسلا لها ، بأعداد منها .

وما أن وصلت الى بيتي .. وتصفحت هذه الاعداد .. حتى رجتني هذه المجلة رجا عنيفا .. ودخلت بي عالما غريبا جديدا منذ اللقاء الاول ، انتقلْ بي من تحت ظلال الزيزفون الى ظلام الظهيرة .. قطعت حديثي مع مجدولين لتقف بي وجها لوجه أمام شاعرية تشيكوف ودقته وقسوته .. وشجاعة سارتر ، وتحرر سيمون دو بوفوار .. لتفجر في نفسي الضياء والالوان ..

ويمتد موكب المفكرين والادباء الثوار في مختلف الرؤى والاتجاهات مخصبا الواقع الثقافي العربي بأعمال وترجمات سامي الدروبي ، محيي الدين محمد ، الدكتور نجم ، أدونيس ، عبد الله عبد الدايم ، رئيف خوري ، علي سعد ، وتتحطم في مسيرتهم تماثيل قديمة وتولد أخرى أكثر حياة ومعنى ..

وقد واكب تعرفي على المجلة ، هذه الهدية الرائعة التي ألقيت بين يدي ، عيد أسبوعي ، هو يوم الثلاثاء .. حيث عرفني آل النقاش بدورهم على مجموعة من الادباء والفنانين الشبان .. مثل صلاح عبد الصبور ، أحمد عبد المعطي حجازي، عبد المحسن بدر ، عبدالجليل حسن ، جلال السيد ، سمير قدري ، محمد سليمان ، يوسف السيسي .. وكان الدكتور شكري عياد ينزل الى (بوفيه) الآداب حيث يجتمع بهؤلاء الشبان مع آخرين من زملائهم العرب الذين يشاركونهم الاهتمامات الادبية والفنية نفسها ، فكانت تثور المناقشات والقضايا التي لا تنتهي حول الوجود والعدم .. العبث والتمرد.. الماركسية والتروتسكية .. اللامنتمي .. وجوب هدم الحائط الرابع .. الالتزام .. القومية العربية .. السريالية .. الواقعية الاشتراكية .. البعد الثالث .. فن بيكاسو .. مصارعة الثيران في السياسة الدولية.. انجيلَ لم تأت به المجامع .. القضايا والمناقشات نفسها التي كانت تعرضها « الآداب » وكأنها الآداب منشورة بين يديّ ..

ولما كنت ما أزال في مرحلة البحث عن الذات ، هذه المرحلة التي يكون فيها الكاتب الناشىء أحوج

ما يكون لمن يستهدي برايه في اختيار ما يقرأ وما يرفض حتى لا يبدد طاقاته في السراديب المظلمة ، فقد كانت « الآداب »هي بوصلتي وسط هذه المتاهات .. وأخذت تتحدد مفاهيمي بالنسبة للكاتب وتقييمه ، من خلال المقالات النقدية .. وباب (قرأت في العدد الماضي) للبحث والقصة والشعر ، تخيلت ان « الآداب » هي الانجيل الذي لم تأت به المجامع .. لدرجة انني عندما عثرت عليها مرصوصة بين المجلات الادبية .. هلعت .. فقد كنت حتى هذه الآونة أتصورها مجلة يتبادلها الصفوة وليست سلعة يستطيع شراءها من يريد ..

وبعد ان ارتضيتها هكذا ـ على مضض ـ اصبح يوم صدورها عيدا خاصا لي .. أغفر مع قراءته كل ذنوب العالم من حولي ..

واستطيع القول ، بعد سنوات طويلة ، ان « الآداب » حملتني فوق صفحاتها المحلقة وعبرت بي سنوات المراهقة .. فلم أعان ، بعد تعرفي عليها ، ما يعانيه أقراني في هذه السنوات .. ولا أعرف ان كان هذا سليما من وجهة نظر علم النفس أم لا .. ولكن هذا ما حدث بالضبط .

* * *

كانت مشاركتي في « الآداب » تمثل مرحلة الانتقال من المراهقة الى الرشد ، أو من البحث عن الذات الى الدخول في العالم .. وقد حدث ذلك عند قراءتي العدد الاخير من سنة ٥٧ .. عندما قرأت في باب نقد القصة مقالا بقلم الاستاذ صدقي اسماعيل لقصة « الموجة الاولى » للاستاذ وحيد النقاش .. هلعت يومها .. كيف يساء فهم الذي عرفني بمجلة « الآداب » وعلى صفحاتها .. فشمرت عن ساعدي للدفاع عنه .. وكنت وجلة ـ رغم ذلك ـ في الكتابة .. لتخيلي ان رئيس التحرير لن يأبه لكاتبة طالبة مغمورة مثلي ، ولكني كتبت تنفيسا عن غضبي .. وامتنانا لوحيد ..

وقد استهللت نقدي لناقد القصة ، بكلمة الاستاذ رئيف خوري : « لننتج للشعب أدبا كأرفع ما تبلغ اليه طاقاتنا في انتاج الادب .. فان لم يفهم الشعب اليوم فهم غدا ، وان لم يفهم بنفسه أعانه على الفهم هؤلاء الوسطاء الذين نسميهم النقاد ، وان استعذت منهم بالله في أحيان » .

وكان العدد الاول ـ كانون الثاني (يناير) ـ عددا ممتازا عن الادب والقومية العربية . فقلت لنفسي أطمئنها : ليس هذا العدد بالمناسب لنشر مثل هذه الخواطر .. ولكني فوجئت بها منشورة في صندوق البريد .. فطرت فرحا حتى كدت أبكي .. وآمنت بأن هذه المجلة محقة في قولها انها تنشر الراي ونقيضه ولو جاء من ناشئين .

وفي العدد الثالث من سنة ٥٨ ذاتها كررت المحاولة ليطمئن قلبي ... فقد وجدت ناقد (قرأت في العدد الماضي) للشعر ـ وكان الشاعر صلاح الدين عبدالصبور ـ يعقب على قصيدة « المحروم » للشاعرة ملك عبد العزيز، وهي زوجة الدكتور محمد مندور ، بقوله : « قصيدة عذبة تحوم حول تلك الفكرة المأثورة القائلة بأن الحرمان ينضج الفن » . ولم أجد في هذا القول ما يوفي الشاعرة في نظري قدرها الواجب ، فأمسكت بالقلم مرة أخرى دفاعا عن ملك عبد العزيز .. ولخوفي أو لترددي من مواجهة شاعر مثل صلاح عبد الصبور فقد بدأت كتابتي اليه بقول أناتول فرانس : « ... فاذا لم يستطع الشاعر العظيم أن يعرف ما هو الشعر فمن اذن يستطيع ؟ » .

وكنت أرى بأن القصيدة موضوع المناقشة ، ملحمة بالفعل ، وان لم تكن ملحمة مواقع .. فقد عرضت الشاعرة لكل الفلسفات التي يؤمن بها الفنان في تطوره من الضياع الى المعرفة والخلق ، مع الاحتفاظ بعمق الصورة .. وصحة اللغة .

ولكي أعطي لوجهة نظري هذه وزنا يجعل الدكتور سهيل ادريس ينشرها ، كتبت تحت اسمي « قسم النقد والبحوث الفنية .. القاهرة » .

وصح توقعي فوجدتها منشورة بالعدد الرابع ـ نيسان (افريل) ـ فطار لبي فرحا ، ورحت أطلع عليها طلبة المعهد وأساتذته ..

بعد ذلك سنة ١٩٥٩ ظهر ديوان « أغاني الصبا » لنفس الشاعرة .. وكثر جدل النقاد حول بعض قصائده .. وكل مرة ترد الشاعرة موضحة وجهة نظرها .. بعد أن أدفعها أنا لذلك .. وشيئا فشيئا وجدتني على فكرة واضحة بقصائد الديوان وبما يجب أن يقال .. فتشجعت وكتبت شبه مقال نقدي عن الديوان.. وما يجب على النقاد أن يضعوه في اعتبارهم.. ومن ان عنوان الديوان يوحي بماهيته .. أغاني الصبا .. ومن الانصاف حقا في قراءة هذا الديوان قراءة القصائد على ضوء التاريخ الذي قيلت فيه القصيدة بالنسبة لعمر الشاعرة النفسي والوجداني . وهذا لا شك سيكون لنا بمثابة مقياس نتعرف به الى أي مدى كانت الشاعرة مخلصة لقضيتها الشعورية التي ربطت نفسها بها .

وطبقت أنا هذا المقياس .. الى أن وصلت الى كتابتها للقصة الشعرية في مطولتها الرائعة « ذكرى جواد » ، فوجدت انه قد دارت حول هذه القصيدة العملاقة معركة نقدية بين النقاد والشاعرة ... فقد نقدها الاستاذ محيي الدين صبحي وردت عليه الشاعرة ردا تحليليا ، ثم تدخل الدكتور احسان عباس في العدد الذي بعده ، وعادت الشاعرة للمدافعة عن القصيدة ..

وقد لفت نظري في تعليق احسان عباس على رد

السيدة ملك عبد العزيز المنشورة (بصندوق البريد) بعنوان « بين الواقع والامكان » عدة أمور أهمها ، ان تصوير شخص يقف ضد جيش جرار ـ في الفن ـ أمر مضحك يحتاج لتحقيقه شيء من المعجزة .. انه يرى في تصوير هذا الحادث اسرافا وخروجا على الطبيعة البشرية .. على عكس ما كنت أرى من خلال منطق الواقع الممكن .. والفهم الاكثر شمولا وتفاؤلا بالنسبة للطبيعة البشرية ، خصوصا ان جريدة «الاهرام» قد نشرت في أواخر شهر اكتوبر وأوائل نوفمبر من السنة نفسها ، كثيرا من البطولات الفردية والجماعية ، تقنع بأن بطولة جواد لم تكن حدثا شاذا .

وبعد نشر هذا المقال في العدد الثالث ـ آذار سنة ١٩٦٠ ـ تحت عنوان : « رأيان في (أغاني الصبا) » ـ لانه نشر مع رأي آخر للاستاذ الحساني حسن عبد الله ـ قدرت فجأة ان حماسي لاشخاص قريبين مني ، أتبين من خلال نواحي دفاعهم عن أعمالهم ، لن يوافيني في كل ما يجب أن يكتب .. فآثرت الصمت للاستزادة من العلم والتحصيل .. ذلك انني في هذه الآونة من حياتي كنت قد تعرفت على كثير من الادباء وتوقفت على مدى ثقافتهم وتفانيهم في جمع المادة التي توافي الكاتب بالبراهين والاسانيد كلما غاب عنه الحب والحماس ..

وكلما توغلت في التحصيل كلما زاد جبني عن الامساك بالقلم ، حتى بعد أن طلب اليّ ذلك الدكتور سهيل ادريس نفسه .

* * *

كان ذلك في مؤتمر كتاب آسيا وافريقيا .. حيث اجتمعوا في القاهرة سنة ١٩٦٢ .. وكان مهرجانا كبيرا بالنسبة لمثقفي مصر . وقد رأيت بأم عيني كبار الكتاب الذين قرأت لهم .. وكنت قد رسمت لهم مئات التصورات التي تناثر جزء منها عند رؤياهم وبقي أو ثبت الجزء الآخر .

فناظم حكمت الذي كنت أتخيله من خلال أشعاره في سجن (برومته) رجلا دقيق الملامح والقد .. شاحب الوجه .. أجده فارع الطول ، قوي البنية ، أحمر الوجه .. كأناضولي أصيل .. كاد أن يخلع ذراعي وهو يصافحني ويضغط على يدي .. كاتب ياسين كما تخيلته تماما بقده النحيل وغيبوبته الخمرية التي تظهر من تهويماته مع نجمه (الجزائر .. وابنة العم) ، ها هو سكره الدائم يؤدي به الى مفارقة المؤتمر قبل أن يبدأ .. بعكس قرينه الجزائري محمد خميسي الذي كان مثال الانضباط .. ولم تكن اكثر اللجان المتفرعة عن المؤتمر تخلو من عضويته . محمد ديب ، الذي قرأت له بالعربية وفوجئت بأنه لا يعرف منها شيئا . شخصيات وشخصيات ، كانت مجرد أقنعة ترمز الى الفكر والفن العظيم ، ثم فجأة تفجرت بالحياة الانسانية .

وكان على رأس من تعرفت عليهم في هذا المؤتمر ، الدكتور سهيل ادريس .. بدأ حديثي معه بمعاتبته على موقفه القاسي من جانين مونرو بطلة روايته « الحي اللاتيني » .. بقدر ما تعطفت مع روح السخرية الانسانية التي تناول بها شخصياته في « الخندق الغميق » . وقد ذهل هو عندما كلمته باسهاب عن الشخصيات التي استشففتها من وراء تصويره لابطال « أصابعنا التي تحترق » ، ومن انه غيّر وطن البطلة والشكل الادبي الذي تكتب .. وانه كان ذا وجهة نظر مختلفة بالنسبة الى الاستاذ رئيف خوري .. وعندما كلمته بدقة عن كل ما يكتب في « الآداب » .. والمعارك الدائرة على صفحاتها ، فوجئت بأن بعض الشخصيات ، وخصوصا فلان وفلان ، قد اشتركوا في المعركة الدائرة ولكن بغير أسمائهم .. ثم أردفت كل ذلك برأيي في كل كاتب . عند ذلك استحثني على الكتابة « للآداب » بشكل منتظم ، ولكنني كلما هممت بالامساك بالقلم خانتني شجاعتي ورحت أتراجع .. وأجلت الموضوع كله الى ما بعد .

ومرت السنوات .. الى أواخر سنة ١٩٦٦ ، وكان الدكتور سهيل ادريس يجلس الى الشاعر صلاح عبد الصبور يستعرضان من يصلح لان يكون مراسلا لمجلة « الآداب » في القاهرة ..

وفجأة وجدتهما يتهامسان .. ثم قال الدكتور سهيل : لماذا لا تراسلين أنت مجلة « الآداب » ؟! أنا !! انني لا أصدق هذا الشرف . فقال صلاح عبد الصبور : هذه فرصتك للخروج من الصمت . ان التزامك بكتابة رسالة شهرية ، ثم تحركك بين كتاب مصر ، لتكليفهم بما يطلبه منك رئيس التحرير من مقالات ، واختيارك لمن ينتقد العدد الماضي .. فرصة نادرة . ثم تعهد هو بأنه سيقف بجانبي اذا تعثر أمامي شيء .

وبالفعل تم ذلك ، بفرح وعدم تصديق مني .. والحق انني في هذه الآونة كنت أكتب « للآداب » وأنا شديدة الغيرة منها .. ذلك انها تحولت من مكان المعبودة الى مكان الغريم .. فقد أصبحت أعرف بين أوساط المثقفين .. يعرفني أحدهم بالآخر على انني مراسلة « الآداب » في القاهرة وكأن ليس لي هوية غير هذه من قبل .

* * *

أصبحت الكتابة شيئا مختلفا منذ اللحظة التي وافقت فيها على أن أكتب كمراسلة للمجلة .. فالكلمات تحمل اسم القاهرة .. والجانب الذاتي الذي كان

محركي الاول يجب أن يتوارى ليفسح المجال للتعبير عن العطاء الذي يمكن أن تساهم به القاهرة في واقعنا الحضاري المعاصر .. وعلى مستوى العاصمة الكبرى من خلال كل ما يغذي وما يعوق ذلك العطاء المتحقق والمنتظر .

خرجت أبحث عن كل العناصر المحركة للوجود الادبي والثقافي في القاهرة لأوصل صورتها .. الى اخواننا هنا وهناك .

وكنت أحيانا ــ نظرا لحيوية الحركة الادبية والفنية في ذلك الوقت ولعدم قدرتي على تجاهل الاحداث الهامة ــ أكتب أكثر من موضوعين أو ثلاثة في العدد الواحد .

وقد شرفني أستاذنا الدكتور عبد القادر القط .. عندما علق على عدد من هذه الاعداد .. التي كنت قد كتبت فيها أكثر من موضوع ، كان أولها ذكرياتي عن نجيب محفوظ ، يوم قرأت « زقاق المدق » ... فتساءل: « ولست أدري اذا كانت حماسة المرأة وذكاؤها وراء هذه الذكريات التي قدمت الينا (الصغيرة) عائدة طفلة جامحة الخيال في الوقت الذي كنا نحن فيه رجالا كبارا نلتقي مع نجيب محفوظ كل يوم جمعة ؟ على ان في العدد الماضي من « الآداب » شهادة لا تقبل النقض على نشاط الكاتبة وحيويتها .. فقد كتبت الى جانب هذا المقال عرضا شاملا لاحداث المؤتمر الذي عقده الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة لمناقشة شؤون الكتاب العربي ، كما قدمت عرضا طيبا لاهم الاحداث الثقافية في القاهرة .. فتحدثت عن كتاب الدكتور لويس عوض الاخير « المحاورات الجديدة » وعن زيارة سارتر للقاهرة.. وعن كلمة الجمعية الادبية للشاعر صلاح عبد الصبور لفوزه بجائزة الدولة عن مسرحيته الشعرية « مأساة الحلاج » .

واذا كانت « الآداب » قد مثلت عنصرا هاما من عناصر توجيهي الثقافي والادبي في مرحلة البحث عن الذات ، كما مثلت عنصرا في مرحلة دخولي الى عالم الكتابة بمقالاتي الاولى بها ، كما مثلت عنصرا هاما مؤخرا في مرحلة الالتزام بالتعبير عن الواقع الموضوعي فترة أن كنت مراسلة القاهرة .. فانني لا أستطيع أن أحدد متى كان دور هذه المجلة أكثر أهمية بالنسبة لي ، وان ظلت المرحلة الاولى آثرها الى نفسي .. ربما لان مراحل الطفولة والصبا تظل ، مهما كان بها من حيرة ، من أعز المراحل الى نفس الانسان .

وأنا الآن أكتب ــ بلا قيود من الخارج ــ ما تدفعني نفسي اليه ، وهو ما أتحمس لكتابته .. مرحلة شبيهة تماما بمرحلة البحث عن الذات ، وان كانت التسمية الصحيحة هنا هي العودة الى الذات . مع ملاحظة شديدة الاهمية وهي ان هذه العودة تتم الآن بعد أن صار لتلك الذات رصيد مخزون من التجربة الانسانية والادبية أعتقد انه يستحق التقديم . وهو على كل حال ما لا يستطيع أن يعطي الكاتب أكثر منه .. الا اذا تصورنا بأن للكاتب نفسا أخرى يهبها للعالم ...

والآن .. وقد كتبت عن الطيور بين صفحات عالم الفن والفكر ــ لم ينشر بعد ــ فغدا أكتب لقاء مع أحد الادباء .. أو نقدا لكتاب أحب .. وبعد غد ربما أكتب قصة قصيرة .. أو قصيدة نثرية .. وكل ذلك في حقيقة الامر شيء .. انه نفسي .. أقدمها من خلال الطيور أو اللقاء والنقد .. نفسي التي تمثل « الآداب » جزءا عزيزا منها .. بقدر ما خدمت باخلاص جيلنا من الكتاب والفنانين منذ خمسة وعشرين عاما .

القاهرة

صدر حديثا :

حكايات الصديق قوجا

وأغاني زهران

الياس لحود